

أدب المهجري صميم ..

بقلم الدكتور نديم نعيم

يعرّكه ويعجنه ويصهره عبر ذاته ثم ان يصود به اليّ وقد اضفي عليه معنى وقيمة ومبدأ حياة . وما نفع ماء وهواء ونور وتراب وزمان ومكان ترحل اليها حبة الحنطة في تفتيحها على الحياة ان لم يكن لها من ذاتها جهاز متكامل يصهر هذه جميعا ويحولها الى كيان بعينه ، الى سنبله سوية .

من معالم الاصاله في «عبد الله» كشاعر وكفنان انه يعي وظيفته المهجرية . فهو ينتمي الى اسرة من زملاء له سابقين في العربية وغيرها حاولوا ان يرتحلوا الى المجهول عبر رؤاهم ليعودوا به وقد انصهر وتقولب عبر ذواتهم في كتاب هو خلاصة موقفهم من الوجود . فنحن ان استثنينا الاسفار الدينية ، على ما بينها وبين محاولة الدكتور انطون كرم من وشائج قريبي في النهج والاسلوب ، وذلك باعتبار انها دينية ، يبقى عبد الله خلافا لاسلاف نبويين ليس اقلهم بالعربية المصطفى والارقيش ومرداد . ولعل ارقش نعيمه هو اقربهم الى روح عبد الله على ما بين النتائج التي توصل اليها كل منهما من تباعد .

لقد عودتنا هذه المنطقة من العالم ان تظل علينا بين الغينة والغينة باصوات نبوية . وعبد الله هو احد هذه الاصوات وابن هذا التراث النبوي في نظرتة الى جوهر المعرفة . الا ان للاصوات النبوية مسلكا خاصا في تادية رسالاتها . فهي تقرأ علينا ابدا من سفرين : في الواحد وعيد ودينونة ورؤيا فجيسة وخراب للعالم كما هو كائن ، وفي الثاني وعد وشرية خلاص للعالم كما ينبغي ان يكون . سفر يرغي ويزسد على الضلال القائم والظلمة المستحكمة ، وسفر يقدم اليها اشرافه البديل .

لكم هو عظيم ونافذ وشمعيري بين كل الاصوات صوت عبدالله اذ يقرأ علينا من سفر فجيسة العالم وعيشية وجوده كما كان قائما في الماضي وكما هو قائم في الحاضر . فكان عبدالله اذ تنداح تموجات صوته في معارج وعينا ، طاقة زلزلت من فوقها ركام بضع الاف من السنين ثم خرجت اليها ماردا تورانيا معاصرا . ففي هذا الصوت غضبة حزقيال وعلوية ارميا وعيشية الجامعة . فهو ان اخبرنا عما يراه في ماضي البشرية قال :

« واذا الارض ملعب لاهوال الحشر . سدت منافذها واطلق الضواري على (المعذبين في الارض) ، ومن لم يهلك من داخل العالم ، اطفاه القدر في خواء الفضاء ... »

(يموت فاتح ، ويقوم فاتح ، وتقوم شرائعه معه وتموت) . من كوم العميد تزجي مضرجة تحت سيات فرعون ، تحول اعمارها اهراما ،

« الادباء المهجريون » اسم جرى العرف ان نطلقه على طائفة من شعرائنا وادبائنا الذين نبغوا خلال النصف الاول من هذا القرن خارج الوطن . ومن هنا درجنا على ان نسمي نتاجهم « الادب المهجري » . غير اني ما وقعت على اثر ادبي لفنان اصيل - و « عبد الله » مثل ذلك الفنان - الا وعدت الى مدلول تلك التسمية فهالني كم هو اعتباطي وضييق .

اذا كان لاحدهم ان يعرف الفن - والادب من ابرز الفنون - لقلت : انه تعبير الفنان عن نفسه كما يحس الحياة وينفعل بها . فهو والحياة صنوان . لذلك كان الفن ابدا عملا تجسيدا . فالحياة اذا نحسن انعمنا النظر فيها هي توى دائم عبر الكائن الحي الى الشائع ، المبهم ، الى الفائب الفائم المجرد في محاولة لتجسيده ، واعطائه حضورا واصلا وهوية . خذ مثلا حبة الحنطة وهي في طريق تموها حتى تصبح سنبله . اليس انها في خط سيرها جهاز حي مهمته ان يفتح على اللامحدود الشائع الصانع المبدد في هذا الوجود اللامتناهي من نور وماء وهواء وتراب وزمان ومكان وغيرها ، فيكتله في كيان بعينه ويعطيه شخصية معينة هي السنبله ؟ اذا كانت هذه وظيفة الحياة ، فوظيفة الفنان المقترنة ابدا بالحياة هي ايضا كذلك . فالفنان هو ذلك الراحل ابدا الى الارحوب والشائع واللامحدود في ذاته وذات الكون - ليشده اليه ويجممه ويجسده وليعطيه من نفسه عبر فنه كيانا بعينه وشخصية وهوية . فالفنان الاصيل اذن ، او الاديب الاصيل ، هو في جوهر رحيل ابدي . انه دائما مهاجر ، كما ان ادبه هو ابدا مهجري .

انه رحيل العالم الاصفر في ذاته وذوات الناس الى العالم الاكبر ، رحيل الجزئي الى الكلي ، والاتي الى المطلق .

الا ان اخص خصائص الهجرة انها حنين وانجذب ابدي الى الوطن وارتباط به . واني اذ اعتبر الفنان الاصيل مهاجرا فلاشدد على ان اصالته هي ان له وطنا يرتبط في هجرته به وتتشدد جسوره ابدا الى ترابه . والوطن هذا الذي ارمي اليه ليس تلك البقعة من الارض التي فيها نولد ولا هو الشعب او التراث الذي اليه ننسب . كلا ولا هو في الموروث من المذاهب الروحية والسياسية والاجتماعية والحضارية التي ترمينا بها وفيها صدفة الولادة . ان وطن الفنان الذي اعنيه ليس هذه بل هو الموقف الكوني الذي تكونه ذاته من هذه جميعا ومن الوجود الارحوب الذي تحتم علينا الحياة ان تكون في رحيل ابدي اليه . وما شاتي مع فنان بلا موقف ، فنان يرحل بقلبه وفكره وخياله الى المطلق الشائع الهولاني في هذا الوجود فلا يستطيع ان

حييتهم من العقل والتجربة في الغرب كدرب الى الحقيقة ، ان عادوا الى قلب الشرق - شرقهم فصهروا جميع المذاهب والطقوس التسي استنزفت منه رحيق الحياة ، في اتون التصوف . فكان ان انتصب في مرداد والمصطفى يسوع جديد .

لست انكر ما في هذا الذي فعلوه من تعارض مع مقدسات تربيت في هذا الشرق عبر العصور ومن تعرض لمحنة الرفض في الكفر المؤمن . لعل ذلك بعينه ما دفع عبد الله وقد رأى التصوف نتيجة لازمة لمطلقاته ان هو اكمل خط سيره الى نتيجته المنطقية ان يدير هذا التصوف شطر الناحية الاسلام . ففي كتاب عبد الله تصوف بارز وكبير . الا انه تصوف للكلمة في شرقه وليس للروح والمبدأ . فان بين انظون كرم والكلمة بشكلها وروحها وموسيقاها اتحادا صوفيا ولا اتحاد الناسوت باللاهوت في نظرية العشق الالهي . فكانه في كتابه جميعا من الفه وحتى يائه النحات الماخوذ بالصورة التي ينبغي ان يكون عليها تمثاله . فهو كفنانه ماهر في كتابه عبد الله يشبه ان يكون اقرب الى النحات منه السى الشاعر او المفكر . فهو يذكره وهو في عناق ترفاني مع الفاظه وجمله بواحد من اولئك الوثنيين من مثالي الاغريق وقد انصب على الحجر يلبسه خلاصة فنه حتى اذا اكمل خر عند قدميه وتعبس .

في هذا ما يجعلني اعجب اذ اعني لماذا اختار عبد الله في هذا الحوار الجميل الذي يفتتح به كتابه شخص فيدياس من دون كل الناس . كما اراني افهم واقدر تنويع كتابه باثنين من القرآن الكريم هما ايضا آيتان من آيات موسيقى التعبير في العربية .

من الكتب في ترائنا ما لا تصح فيه الترجمة . و « كتاب عبد الله » واحد من هذه الكتب . انه في نظري سيبقى معلما من معالم الفن التعبيري في هذه اللغة ، لفتنا التي تكاد لا نضاهيها في هذا المجال اي لغة اخرى .

قديم نعيمة

روايات وقصص

من منشورات دار الآداب

٧٥٠	نجيب محفوظ	اولاد حارتنا
٤٠٠	د . سهيل ادريس	الحي اللاتيني
٤٠٠	د . سهيل ادريس	الخدق الغميق
٤٠٠	د . سهيل ادريس	اصابعنا التي تحترق
٢٠٠	فاذة السمان	ليل القرباء
٢٥٠	محمد ابو المعاطي ابو النجا	الناس والحب
٢٥٠	يوسف شرور	زورل من دم
٢٥٠	ديزي الامير	ثم تعود الموجه
٢٠٠	غسان كنفاني	عن الرجال والبنادق
٢٠٠	د . عبدالسلام العجيلي	الخيل والنساء
٢٥٠	د . عبدالسلام العجيلي	فارس مدينة القنطرة
٢٥٠	يوسف الشاروني	الزحام
٢٥٠	سليمان فياض	احزان حزينان
٢٥٠	عبدالكريم غلاب	الارض حبيبتي
٢٥٠	عبدالله نيازي	اعباد
٢٥٠	محمد رؤوف بشير	رحلة الخفاش

تشيدها قبورا لتخليد ذكراه ، الى سبي بابل ، الى ربح لحم الرقيق يكون بالسفائيد والسياط ، وتفتأ عيونهم ، ويخسون ، او يدفنون احياء في مجاهل الرمال ، وتجترف الاسماك في اللجج اجرام الهياكل المفككة .

واذا التفت عبد الله الى حاضر البشرية رآه بابل القرن العشرين تشاد ابراجها من دخان الموت في هيروشيفا . يقول : « في البعيد عند مشرق الشمس ، هب مارج من سقر ، عمود دخان ولهب ، وصل الارض المتقلصة بالجلد الاسود ، حل في السديم كريات الحياة ، واجتثت « هيروشيفا » من جودرها القصية ، وبصفت مدروة في سافيات العلم ... »

بابل ، بابل ، لقد كسرت اجراس النحاس على قباب معابدك ، فالتوت فوقها محتضرة كالتواء الرؤوس على مشانق عبد الحميد . سقطت ضرباتها في تراكب المصدر . وانقراض التراجم ، ومسات الفرع ... » الى ان يقول : واسلقت الارض بقيا ، فتحت للشمس محرما ، فنزا عليها جيش من العبيد .

اجل ، هذا بعض من صوت عبد الله وهو يقرأ علينا من سفر فجيفة العالم وعبثية وجوده كما كان قائما في الماضي وكما هو قائم في الحاضر . وهو صوت اقل ما يقال فيه ، وكان كلماته ومقاطعه تجمعات من تزييف نبوة جريح ، انه ليس نكرة بين الاصوات ولن يصبح نكرة في مستقبل العربية .

قلت ان الشعراء النبويين - وعبد الله محسوب منهم - يقرأون علينا ابدا من سفرين . فهم لا ينعون على العالم كما هو قائم ضلاله وعبثيته وخرابه الا ليعرضوا عليه من الجهة الثانية فلسفة حياة وبدل خاص . فاي بديل يعرضه على الناس عبد الله ، لقد كان من اسلافه المهجريين من الارفش الى النبي الى مرداد انهم اذا نموا على الانسان المعاصر شرقية وغربية ضياعه وعبثية حضارته القائمة على مقدمات خاوية ، ان عبروا فوق سني الضياع الطويلة الى اكسير الروحانية في الشرق القديم وطوروا منها دينا جديدا متكامل . وهو ذا عبد الله يكاد يسلك الدرب عينها ولكنه ما ان يبدأ بالاطلال على مؤدياتها التي استقر عندها الارقش والمصطفى ومرداد ، حتى يحجم ويرتبك ويرتدع . انه كرفاقه يدرك عبثية الحضارة العربية القائمة على العقل والتجربة . فالعقل والتجربة يباشران الحقيقة عن طريق تحليها وتحديدها وتجزئتها . والحقيقة ككل كان حي ان هي جزئت ماتت ففرنا منها الجثة وفاننا السر .

وهو كرفاقه ايضا يدرك خواء الديانات الشرقية بعد ان برد فيها سبيل اللهب الاول فتجمد في طقوس انعدت اسوارها المقيبة على فراغ .

واذن ما البديل ؟

عند هذا الحد يقف عبد الله وينلجج . فهو هنا كما ترى لا بد له من احد امرين : اما يلعن عبثية الانسان والحضارة والوجود ، واذ ذلك ما معنى ان يقول عبد الله لنفسه في الجزء الاخير من كتابه « آمن بالحياة يا عبد الله ، آمن بها تبرا » ؟ واما ان ينتصح عبد الله بنصيحة نفسه فيؤمن بالحياة ، وبالتالي بعادتها وحكمتها . واذ ذلك ينتحتم عليه ان ينقاد مع المصطفى ومرداد الى عالمهما : فبرى كما رآيا بان الحياة ما قامت بما قامت به حتى الان الا لحكمة ، وان ثورتنا ، بما فيها ثورة عبد الله ، تبقى بلا قيمة على الاطلاق ما لم يرافتها الوعي بان ما يضايقتنا وما يؤلنا ويؤذينا ليس غير المصهر الذي يجلو الاحساك عن حبة الالوهة الكامنة في صدر كل انسان . الا ان عبد الله يبقى متلججا . فلا هو يلعن عبثية مطلقة ولا هو يتصوف .

من طبيعة المسلك النبوي في التراث البشري انه يقتضي صاحبه اما ان يكون داعية لما سبقه وميشرا به ، واما ان يصهر ما سبقه في اتون ذاته ويعيد خلقه منهبا جديدا سويا . من هنا كان للمهاجرين بعد